ملحق عن رحلات الشيخ محمد بن عبدالوهاب العلمية

بما أن مذكرات همفر تمحورت - كما سبق - حول ادعاء لقاء همفر بالشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء وجوده في البصرة، فقد ارتأيت أن أنشر مُلخصًا لرحلات الشيخ العلمية التي ذكرها المؤرخون الثقات[١]؛ دفعًا للخلط الذي قد يقع فيها، مما قد يستغله الأفاكون، ومروجو الأكاذيب.

«**سفره لطلب العلم:**

كانت الانطباعات التي تكونت لدى الشيخ محمد إبان حجه الأول، لا تزال عالقة في ذهنه حينما همّ بمغادرة العيينة لمواصلة تعلمه. و كان ما رآه في الحرمين الشريفين من حلقات العلم و الوعظ؛ كافيًا لإقناعه بأن تكون خطوته الأولى في أسفاره العلمية إلى الحجاز. و هكذا سافر إلى مكة المكرمة، حيث حج مرة ثانية. و مع أنه من المحتمل أن الشيخ محمدًا بقي في تلك البلدة المقدسة بعد الحج للدراسة، فإن المصادر لا تذكر دراسته على علماء فيها. ولعله لم يمكث هناك مدة تستحق العناية والتسجيل. على أنه ما لبث أن سافر من مكة إلى المدينة، حيث بدأ رحلة مهمة من مراحل دراسته.

---

(١) نقلًا - بتصرف - عن كتاب «تاريخ المملكة العربية السعودية»؛ للدكتور عبدالله العثيمين (ص ٦٣ - ٦٨)، حيث أجاد الاختصار والصياغة. والهوامش مني؛ تتميمًا للفائدة. وانظر للتوسع: «عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي»؛ للشيخ صالح العبود (١/ ١٣٣ - ١٨٢).

وكانت المدينة المنورة ملتقى العلماء وطلاب العلم من الأقطار الإسلامية المختلفة، وكان بعض هؤلاء يأتون إليها ويستقرون فيها للمجاورة، أما البعض الآخر فيقدمون إليها، ويمكثون فيها فترة، ثم يغادرونها عائدين إلى أوطانهم. ومع أنه من المرجّح أن الشيخ محمدًا قد حضر دروس عدة علماء في المسجد النبوي[١]، فإن صلته بالشيخين: عبد الله بن سيف[٢]، ومحمد حياة السندي[٣] كانت أوثق وأعمق من صلته بأيِ عالم غيرهما. وكان لهذين العالمين الجلَيلين أثرٌ كبير على الشيخ محمد، لا بالنسبة لتحصيله العلمي فقط، وإنما بالنسبة لاتجاهه الإصلاحي أيضًا؛ خاصة أن صلته بهما قد تمت وهو في مرحلة من مراحل عمره القابلة للتأثر والتوجيه.

---

(١) منهم: الشيخ علي أفندي الداغستاني. كما في «التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق» (ص ٢٥).

(٢) المتوفى عام (١١٤٠هـ). انظر ترجمته في: «علماء نجد خلال ثمانية قرون»؛ للشيخ عبدالله البسام (٤/ ٦ - ١٠). وذكر ابن بشر في تاريخه (١/ ٧) عن الشيخ محمد قال: «كنت عنده - أي ابن سيف - يومًا، فقال لي: أتريد أن أريك سلاحًا أعددته للمجمعة - بلدته -؟ قلت: نعم. فأدخلني منزلًا عنده، فيه كتب كثيرة، وقال: هذا الذي أعددنا لها». وانظر للمزيد عنه: «عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي»؛ للشيخ صالح العبود (١/ ١٥٠ - ١٥٦).

(٣) المتوفى عام (١١٦٣هـ). انظر ترجمته في: «سلك الدرر»؛ للمرادي (٤/ ٣٤)، و«عنوان المجد في تاريخ نجد»؛ لابن بشر (١/ ٤١)، و«أبجد العلوم»؛ لصديق حسن خان (٣/ ١٦٣)، و«الأعلام»؛ للزركلي (٦/ ١١١)، ومقدمة رسالته «فتح الغفور في وضع الأيدي على الصدور»؛ تحقيق محمد الأعظمي، ومقدمة رسالته «رسالة في حكم إعفاء اللّحى»؛ تحقيق الشيخ أبوعبد الرحمن عبد المجيد جمعة.

كان ابن سيف من بلدة المجمعة في نجد، وكان عالمًا بالفقه الحنبلي والحديث الشريف، كما كان معجبًا بشيخ الإسلام ابن تيمية، ولا شك أنه شجع تلميذه على قراءة كتب ذلك العالم الجليل.

أما محمد حياة السندي؛ فكان علاّمة في الحديث وعلومه، وكان من الداعين إلى الاجتهاد في الشريعة، ومن المعارضين للتعصب المذهبي[١]، وبالإضافة إلى ذلك كان من أشد المحاربين للبدع في الدين، وللأعمال التي قد تؤدي إلى الشرك[٢]. وكل هذه الأفكار والمواقف، تنطبق مع الأفكار والمواقف التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ووقفها فيما بعد. ولا تذكر المصادر التي تحدثت عن حياة الشيخ محمد طول المدة التي قضاها في المدينة المنورة.

وحينما عاد منها إلى العيينة؛ كانت قد تبلورت لديه فكرة المناداة بالإصلاح، لكنه لم يُصبح بعدُ مؤهلًا تأهيلًا كافيًا من الناحية العلمية، ولذلك فإن إنكاره لبعض الأمور التي لا تتفق مع الدين الإسلامي الخالص،كان محدودًا في مداه وفي تأثيره على الآخرين. وإدراكًا منه لوجوب إكمال تأهيله العلمي من ناحية، ولعدم تأثير أقواله على ذوي الشأن في بلدته من ناحية ثانيه، قرر أن يسافر مرة أخرى لطلب العلم.

---

(١) من مؤلفاته المطبوعة: «تحفة الأنام في العمل بحديث النبي عليه الصلاة والسلام».

(٢) ذكر ابن بشر في تاريخه (١/ ٧) أن الشيخ محمد وقف يومًا عند الحجرة النبوية، وأناس يدعون ويستغيثون بقبر النبي ﷺ، فرآه الشيخ محمد حياة السندي، فأتى إليه، فقال الشيخ: ما تقول في هؤلاء؟ فقرأ الشيخ السندي: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

وكانت البصرة البلدة التي اتجه إليها محمد بن عبد الوهاب بعد إقامته في العيينة سنة واحدة تقريبًا، منذ عودته إليها من المدينة. وقد درس في البصرة: الفقه والحديث على عدد من علمائها. لكن العالم محمدًا المجموعي(١) كان الشيخ الذي لازمه أكثر من غيره. على أنه درس إلى جانب العلمين السابقين قواعد اللغة العربية حتى أتقنها، وفي ذلك ما فيه من منفعة لمن كان يُعد نفسه ليُصبح قائد دعوة تحتاج إلى من يكتب مُرغبًا فيها، ومدافعًا عنها.

و البصرة كما هو معروف، ميناء تجاري تلتقي فيه طوائف من مجتمعات مختلفة. و من المرجح أنه كان فيها كثير من الأمور التي تتعارض مع نظرة رجل قادم من بلدة صغيرة كالعيينة، ومجتمع محافظ كالمجتمع النجدي حين ذاك. وكان فيها، أيضًا، كثير من الشيعة، ومن المعروف ما بين هؤلاء وبين السنة المحافظين من اختلاف في وجهات النظر في المسائل الدينية.

وفي ظل تلك الظروف، بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب يُنكر ما هو مخالف للحق، وهكذا لم يعد مجرد طالب علم في تلك المدينة، و إنما أصبح داعية يعظ، فيُستمع اليه. ومن الواضح أن جوًا اجتماعيًا كجو البصرة، لا بد وأن يكون مؤيدو الشيخ محمد فيه أقل بكثير من معارضيه. وقد أصبحت المناقشات بينه وبين خصومه حادة ومثيرة. وكان أكثرها حدة

---

(١) قال ابن بشر في تاريخه (٧ – ٨): «عالم جليل من أهل المجموعة – قرية من قرى البصرة –»، ثم ذكر أن شيخه ابن منصور حدثه عن رجل من أهل البصرة: أن أولاد الشيخ المجموعي «هم أحسن أهل بلدهم بالصلاح، ومعرفة التوحيد، وهذا – والله أعلم – ببركة اجتماع الشيخ بوالدهم».

وإثارة: ما يتعلق بالعقيدة، وقضية التوحيد والشرك. ونتيجة لذلك؛ رأى المسؤولون هناك أنه قد يثير لقلاقل! فاضطروه إلى مغادرة البصرة.

و مرةً أخرى؛ لا تُحدد المصادر الموثوقة طول المدة التي قضاها الشيخ محمد في البصرة، لكن منها ما يُفيد بأنها كانت أطول إقامة له خارج وطنه. وقد مر بالزبير بعد خروجه من البصرة، لكنه لم يمكث فيها طويلًا.

و كانت الأحساء من المناطق التي زارها الشيخ محمد، وأقام فيها بعض الوقت، و لعله استفاد من علمائها في بعض الأمور الشرعية. وقد ناقش عددًا من أولئك العلماء في شؤون التوحيد والعقيدة. ومن بين هؤلاء: عبد الله بن فيروز(١)، ومحمد بن عفالق(٢)، وعبد الله بن عبد اللطيف(٣).

و قد عاد الشيخ محمد في نهاية المطاف إلى نجد، منهيًا بذلك رحلاته

---

(١) المتوفى عام (١١٧٥هـ). انظر ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون»؛ للشيخ عبدالله البسام (٤/ ٤٨٦ - ٤٨٩). وأفاد بأنه ابن عمة الشيخ محمد. وهو والد محمد بن فيروز أحد أشهر المناوئين لدعوة الشيخ.

(٢) المتوفى عام (١١٦٣هـ). انظر ترجمته في «علماء نجد خلال ثمانية قرون»؛ للشيخ عبدالله البسام (٦/ ٣٨ - ٤٣). وقال عنه: «أدرك أول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله؛ فعاداها». قلت: انظر للمزيد عن مناوأته للدعوة السلفية: رسالة «المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الأحساء»؛ للدكتور محمد بن عبدالله النويصر (ص ١٨٩ - ٢٠٨).

(٣) المتوفى عام (١١٨١هـ). انظر ترجمته، وطبيعة العلاقة بينه وبين الشيخ محمد في رسالة: «المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الأحساء»؛ للدكتور محمد بن عبدالله النويصر (ص ٢٠٨ - ٢٢٣). قال: «ونظرًا لمكانة الشيخ عبدالله بن عبداللطيف العلمية، كان الشيخ محمد حريصًا على ضمه إلى جانبه»، إلا أنه - للأسف - ارتضى أن يكون من المناوئين! وإن كان أقلهم انتقادًا للدعوة السلفية.

العلمية. وكان أبوه عبد الوهاب قد عُزل عن قضاء العيينة سنة **١١٣٩** هـ، فانتقل إلى حريملاء، حيث أصبح قاضيًا لها.

و بذلك اتجه الشيخ محمد إلى هذه البلدة، ليلتحق بأبيه وأسرته.

و المصادر الموثوقة المقربة من الشيخ محمد لا تذكر أن رحلاته العلمية خارج نجد تجاوزت ثلاثة أمكنة: الحجاز، والأحساء، والبصرة[(١)]. لكن بعض المصادر أشارت إلى أنه سافر إلى بلدان أخرى، في العراق والشام وفارس. غير أن النتيجة التي يصل إليها الباحث من خلال مقارنة جميع المصادر، هي الأخذ برواية المؤرخين المؤيدين للشيخ محمد، المقربين منه؛ وذلك لسببين:

أحدهما: أنهم ادرى بتفاصيل حياته من غيرهم.

وثانيهما: أنهم حرصوا كل الحرص على تدوين فضائلة. ومن المعروف أن السفر في طلب العلم فضيلة. ولو سافر الشيخ محمد إلى بلدان غير التي ذكروها، لما ترددوا في تدوين ذلك، وتفصيله؛ إظهارًا لفضله».

❑ ❑ ❑

---

(١) وعلى رأسها: ابن غنام في تاريخه (١/ ٢٥ - ٣٣)، وابن بشر في تاريخه (١/ ٦ - ٨).